

الموتى والأحياء في ليتورجية سرّ الإفخارستيا لكنيسة المشرق

الأب إسحاق أدونيه تمرس

المقدمة

سنتطرق لمفهوم الموتى والأحياء كما هو في طقس القديس لكنيسة المشرق، والبداية ستكون كتابية، لما لها من قاعدة لاهوتية متينة. استطاعة الكنيسة الأولى ترسيخ الإيمان من خلال خبرتها الكتابية. ومن ثم سنقدم أبرز النصوص الليتورجية التي تتص على ذكرى الموتى والأحياء في القديس الإلهي. ومن ثم استخلاص أهم المفاهيم اللاهوتية من هذه الليتورجية.

1. الموت في العهد القديم:

- سنلخص أهم الأفكار التي ينص عليها الكتاب المقدس، العهد القديم، من خلال الإنسان الكتابي، الذي نعتقد بأنه هو هو في جوهره طوال تاريخ إسرائيل. في النقاط التالية: -
- النقطة الجوهرية والمحورية، والتي لا يمكن أن نتغاض عنها، ويجهلها الكثير من عامة الشعب. هي، "أن تدوين معظم الأسفار الكتابية قد تمّ، حين أثبت إسرائيل إيمانه بالحياة بعد الموت"¹.
 - أن هناك علاقة بين الله والإنسان وذلك من خلال العهد، "فقد قطع الله عهداً مع مجموعة من البشر، مقيماً بذلك، بين الله والإنسان، علاقة تجلّى فيها شيء من سرّه"². لا ننسى أن المبادرة كانت من عند الله في سيناء، أي الله هو المبادر في بداية تكوين العلاقة. ومن خلالها تم إثبات إيمان الإنسان بالحياة والموت.
 - أن النقطة الجذرية في التحول العالمي، والديمومة والموابكة والسيرورة، هي أن الله دخل في التاريخ البشري من خلال هذه العلاقة. "فالعبرانيون هم أول من أكتشف معنى التاريخ كتجلّ لله، ولقد تناولت المسيحية هذه النظرية وتوسّعت فيها"³. أي، أن الله يكشف عن نفسه في التاريخ وبواسطة التاريخ.
 - تث 20-15:30 / انظر! إني قد جعلت اليوم أمامك الحياة والخير، والموت والشر. إذا سمعت إلى وصايا الرب إلهك التي أنا أمرك بها اليوم، محبباً الرب إلهك وسائراً في سبله وحافظاً وصاياه وفرائضه وأحكامه، تخياً وتكثراً وتباركك الرب إلهك في الأرض التي أنت داخل إليها لترتّبها. وإن تحوّل قلبك ولم تسمع وابتعدت وسجدت لآلهة أخرى وعبدتها، فقد أعلن لكم اليوم أنكم

¹ الأب ألان مرشدور، الموت والحياة في الكتاب المقدس، الطبعة الثالثة، دراسات في الكتاب المقدس-دار المشرق، بيروت، 1992، الصفحة 10.

² المصدر السابق، الصفحة 7.

³ المصدر السابق، الصفحة 8.

تَهْلِكُونَ هَلَاكًا وَلَا تُطِيلُونَ آيَاتِكُمْ فِي الْأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ عَابِرُ الْأَرْضِ لِنُدْخُلَهَا وَنَرِثَهَا. وَقَدْ أَشْهَدْتُ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ بِأَنِّي قَدْ جَعَلْتُ أَمَامَكُمْ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ، الْبَرَكَاتِ وَاللَّعْنَةَ. فَاخْتَرِ الْحَيَاةَ لِكَيْ تَحْيَا أَنْتَ وَنَسْلُكَ، مُجِبًّا الرَّبَّ إِلَهُكَ وَسَامِعًا لِحُكْمِهِ وَمُتَعَلِّقًا بِهِ، لِأَنَّ بِهِ حَيَاتَكَ وَطَوْلَ آيَاتِكَ، فَتَقِيمُ فِي الْأَرْضِ الَّتِي أَقْسَمَ الرَّبُّ لِأَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أَنْ يُعْطِيَهُمْ إِيَّاهَا)).
أن هذا النص يدل على أن الإنسان الكتابي أدرك أن الحياة هي مع الله، وعكس ذلك هو الموت. إذاً، "العنصر الثابت هو ذلك اليقين من أن الحياة هي إلى جانب الله دائماً، في حين أن ما هو قابل للتغيير هو مدلول اللفظين (حياة وموت)"⁴.

- أن مفهوم الإنسان الكتابي هو بعيد جداً، عما هو موجود في الفلسفة اليونانية، أي أن الإنسان مركب من جسم ومن نفس. لذا، ينبغي أن نتعرف على الإنسان الكتابي، "إذا تكلم على البسر والنفس والدم والروح، لم يرد في الواقع أن يدل على حقائق مختلفة، بل أشار إلى الإنسان كله، إنطلاقاً من أحد مركباته وملامحه الخاصة. ف البسر يوحي بالأحرى بضعف الإنسان، والنفس تُبرز حيوية الحي (خلفاً للميت)، والروح يدل على نسمة الحياة التي تُحيي، إلى ما وراء كل خليفة، الكون كله وجميع الأحياء"⁵. الإنسان الكتابي هو واحد وبدون أي تقسيمات أو فصل.

- نستطيع القول إن الإنسان الكتابي يعتبر الموت لغزاً، لكن في نفس الوقت، "لا نجد أبداً، في تفكير إسرائيل أي تمرد على الموت"⁶.

- أن موت الأبرار ستصبح نقطة الانطلاق والتحول في فكر الإنسان الكتابي. الذي يعطي معنى أن هناك حياة أبدية، وأن هناك لقاء مع الله. وسنجد في سفر المكابيين، "ما يفسر لنا كيف أن شهداء زمن المكابيين، كان قد أنعشهم إيمان كهذا، استطاعوا أن يواجهوا العذاب ببطولة (2مكابيين 9:7 و14 و2 و33)"⁷. ونقطة الربط بين الفكر الإنساني الكتابي في العهد القديم وامتدادها للعهد الجديد وبلورتها في الليتورجية المسيحية منذ بداياتها. بما يخص ذكرى أو استذكار الموتى في الصلاة وسر الإفخارستيا. سنجد في 2مكابيين 12:38-45 (الذبيحة عن الأموات). "نرى يهوذا المكابي، مدفوعاً بنفس الفكرة، يقيم الصلاة من أجل الأموات. ومنذ ذلك الحين، يصغر شأن الحياة الحاضرة، بالنظر إلى الحياة الأبدية"⁸.

4 المصدر السابق، الصفحة 9.

5 المصدر السابق، الصفحة 15.

6 المصدر السابق، الصفحة 22.

7 المطران أنطونيوس نجيب، معجم اللاهوت الكتابي، الطبعة السادسة، دار المشرق، بيروت، 2008، الصفحة 783.

8 المصدر السابق، الصفحة 783.

لقد قدمنا أهم الأفكار والمفاهيم الكتابية التي تخص فكرة الإنسان عن الموت، لكن بدون أن نتطرق بصورة مباشرة إلى ارتباط الموت بالخطيئة، كما هو واضح في النقطة الرابعة. وبيننا البعد الكتابي الخاص به بعيداً عن البعد الحضاري لمفهوم الموت في الفكر الإنساني السامي الشرقي، اختصاراً لموضوعية الموضوع.

2. الموت في العهد الجديد:

تشير الكثير من الدراسات بأن لغة يسوع هي لغة كتابية معاشه، وأن كُتاب العهد الجديد أو الكنيسة الأولى إذا صح التعبير استطاعوا هضم هذه اللغة وفهمها بصورة تعليمية هادفة. وعلى ضوء خبرتهم الكتابية، وهذا هو سرّ المسيحية بأن الموت والقيامة سيصبحان أساس الإيمان المسيحي والتبشير به. بما أن الموت هو نتيجة الخطيئة، وذلك عن معصية الإنسان لله. لكن مع يسوع يتغير كل شيء. "ثم يأتي المسيح، وبموته ينتصر على الموت نفسه. تغيّر معنى الموت بالنسبة للبشرية المتجدّدة التي تموت مع المسيح لتتحيا معه إلى الأبد". شمولية الخلاص البشري والكوني واضحة من خلال النصوص الكتابية للعهد الجديد كما في (1بط 3:19، 4:6). "ونازلاً على غرارهم إلى الجحيم. ولكن بذهابه هذا عند الموتى، حمل لهم هذه البشرى السارة ألا وهي إعادة الحياة إليهم". بيده مفاتيح الموت والجحيم رويًا 1:18. إذا، المصالحة قد تحققت في موت وقيامه يسوع المسيح، وأهلنا لقبول الميراث الموعود. لذا، أدركت الكنيسة الأولى ومن خلال مبشرها بولس الرسول "بأن الذي أقام المسيح يسوع من بين الأموات سيحيي أيضاً أجسادنا الفانية" روم 8:11. سنجد أن هذه النصوص هي في إطار البعد الإنساني الكتابي كما في العهد القديم، لكن بصورتها المكتملة والنهائية في العهد الجديد. وسيتحقق هذه الإيمان في الحياة البشرية وبصورة عملية وحياتية. معبرة عنها في طقوسها الليتورجية التي عاشتها ومن ثم دونتها.

3. البعد الليتورجي في ذكرى الأموات والأحياء في ليتورجية القديس الإلهي لكنيسة المشرق:

سننظر إلى النصوص التي تُذكر فيها البعد الأسكاتولوجي، أي المتعلقة بالأحداث المستقبلية والأخيرة، والتي تُعد من النصوص القديمة في عيش هذا المفهوم المسيحاني منذ بداية تبشير الرسل. ونقطة إنطلاق المسيحية إلى العالم بأسره، فحدث القيامة هو العصب والعمود الفقري والبعد الجوهرية، في اكتمال مفهوم الأسكاتولوجي للموت. في هذه الدراسة، سوف نعتمد على كتاب المطران جاك إسحق، الطقس الكلداني، دراسة طقسية تحليلية⁹. لن نتطرق للبعد الزمني والتاريخي لنشوء هذه النصوص، لكن سنهتم بمحتوى النصوص التي تشير للأسكاتولوجية المسيحانية الطقسية. كما في النقاط التالية: -

- ترتيبة لآخومارا: أياك يارب الكل نشكر، وأياك يا يسوع المسيح نمجد، فأنت باعثُ أجسادنا، وأنت مخلص نفوسنا. "فإن ترتيلة (لاخومارا) تعبر بكلماتٍ قليلة عن كل ما كان يؤمن به المسيحيون الأولون، أي بسر التجسد وسر الفداء، وتعبّر خاصةً عن رجائهم بقيامة الموتى، وعن شوقهم الشديد إلى عودة المسيح الثانية، وقد أستمروا المسيحيون على الإيمان بهذه الحقائق عبر الأجيال كلها"¹⁰. من خلال الدراسة سنكتشف أن هذا النص يعتبر من أقدم النصوص الليتورجية عن الأسكاتولوجية المسيحية الطقسية، ويقبلها الجميع كعنصر قديم جداً. وأن من النقاط الجوهرية في هذه الترتيلة، هي أنها موجهة إلى يسوع المسيح. أي بمعنى، أن الشعب المؤمن أدرك منذ البداية أنه يقتدي بربه ومخلصه، الذي أنتصر على الموت بقيامته من الأموات، واعطاء الرجاء للموتى في الشبول.
- الابتهاال من أجل الأحياء والأموات: أن سفري الأحياء والأموات، (ديوبطخين-الأصطلاح اليوناني)، سنجده في طقس القديس، والذي يتم تلاوته من قبل الشماس خلال تبادل السلام. وأن الكثير من الدراسات تؤكد أن استخدامه كان منذ القرن الخامس، وهنا سنطرح تفاسير الآباء أو الملافنة، بخصوص سفري الأحياء والأموات.
- الملفان نرساي: "حينما يتبادل المؤمنون السلام في الكنيسة، يُقرأ سفرا الأحياء والأموات. وتذكر الكنيسة في ذلك الوقت الأموات والأحياء، لكي تبيّن أن الأحياء والأموات يستفيدون من القربان"¹¹.
- جبرائيل القطري: "وهذا يعني أن سر فداننا (أي سر الذبيحة الإلهية) يكمل من أجل الأحياء والأموات، وأن الأحياء والأموات على السواء بحاجة إلى هذه (الأسرار المقدسة) التي تجري من أجلنا بطريقة سرية"¹².

⁹ المطران جاك إسحق، القديس الكلداني-دراسة طقسية تحليلية، منشورات دار نجم المشرق، الطبعة الثانية، بغداد، 2008.

¹⁰ المصدر السابق، الصفحة 82.

¹¹ المصدر السابق، الصفحة 147.

¹² المصدر السابق، الصفحة 147.

- المؤلف المجهول: "إنه يعطيها المعاني ذاتها التي رأينها لدى نرساي وجبرائيل القطري. ويطلعنا على أن في عهده، كان الشماس جبرائيل يقرأ سفر الأحياء، وميخائيل سفر الأموات"¹³.
- لذا نستنتج أن، "الهدف من تلاوة سفري الأحياء والأموات وأضح لدى المفسرين وهو أشراك أبناء الكنيسة كافة في ذبيحة القداس، الأحياء منهم والأموات، وهذا أمر يتجاوز مع إيمان الكنيسة (بشركة القديسين)"¹⁴.
- تضرع: حينما يقام قداس الموتى: تضرع خاص يقرأ من قبل الكاهن أمام المذبح على نية الموتى. لن نتطرق لشرحه لأن المعاني النصية للنصوص الليتورجية تدل على فحوة المعاني المقدمة في سفري الأحياء والأموات.
- من النقاط الجوهرية في ليتورجية القداس الإلهي لكنيسة المشرق، سنجد أن كل قداس هو حدث آني للأمم المسيح وموته وقيامته ورجاء لكل الأحياء، والراقدين على رجاء القيامة. كما في الانحناءات التي يقدمها الكاهن أمام المذبح، والتي تعتبر من النصوص القديمة.

¹³ المصدر السابق، الصفحة 147.

¹⁴ المصدر السابق، الصفحة 148.

الخاتمة

- أنّ ما حاولنا إيضاحه هو، أن ليتورجية القديس الإلهي (الطقس)، وفي نفس الوقت سرّ الإفخارستيا. لهما البعد الأسكاتولوجي العميق في حياة الكنيسة ومنذ القرون الأولى. وحتى الطقوس الجنائزية، والقديس اليوم الثالث، هو امتداد لقيامه مخلصنا. لذا سنستخلص أهم المفاهيم اللاهوتية كما في النقاط التالية: -
- أن أهمية مفاعيل الإفخارستيا كما في الطقوس الشرقية تشير إلى إنها، "تتطّلع إلى المواهب الأسكاتولوجية أي الأواخرية، فالذبيحة هي عربون الحياة الأبدية، حيث لا فساد ولا موت"¹⁵.
- البعد المادي الإنساني هو الواضح والباقي حتى بعد (القائم من بين الأموات)، يبقى أن الجسد المادي به كان الخلاص، وبه أصبح لنا الوعد بالقيامة، بعد أن حققه ربنا ومخلصنا في عالمنا. والقديس الإلهي يثبت لنا هذا البعد، ويجعلنا أن نحيا من هذا المنظور المادي لكن في أبدية واقعية آنية. "القائم من بين الأموات يرسل الروح القدس إلى التلاميذ بحيث يستطيعون العيش في تاريخهم الشخصي نمط الوجود الذي كان نمطه هو"¹⁶.
- وهذا ما يتحقق في جميع الأسرار، لكن منذ نشوء الأسرار الكنسية وفي مقدمتها المعمودية نجد أن مفهوم حلول الروح القدس هو من الأسس اللاهوتية للكنيسة. والقديس الإلهي يجعلنا أن نحقق ذلك وبصورة شمولية حتى مع من غادرنا من عالمنا هذا (الأموات).
- أنّ اليوم الثالث له طابع اجتماعي عميق في المسيحية، وهو مرتبط بقيامة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح، لذا الجماعة المسيحية تشترك في القديس الإلهي ومن بعدها زيارة القبر وهي أيضاً زيارة جماعية. ومن خلال الدراسة اكتشفنا أن الكثير من المفسرين يعتقدون أن اليوم الثالث الذي ذكر في الأناجيل هو إضافة من الجماعة المسيحية الأولى. وهو تعبير خاص من قبل مخلصنا. لكن، "بفضل اطلاع أوسع على التفسيرات اليهودية في زمن يسوع، أتضح أن عبارة (اليوم الثالث) كان لها معنى أخيري، لا زمني. بين أيدينا تفسير لسفر التكوين كان يطابق بين اليوم الثالث و (يوم أحياء الأموات)، بحسب ما كتبت: "بعد يومين، يحيينا، وفي اليوم الثالث يقيمنا فنجيا أمامه". وهذه القراءة يُثبتها تعليق آرامي على هوشع 6:1-2: "يحيينا في أيام التعزيات الآتية. يوم يُحيي الأموات، يقيمنا فنجيا أمامه". فإذا كانت عبارة (في اليوم الثالث) تشير إلى قيامة العامة، لم تعد في غير وقتها على لسان يسوع، بل كانت، في هذه الحال، أصح تعبير عن المعنى الذي أضفاه يسوع

¹⁵ الأب منصور المخلصي، النوافير- الصلاة الإفخارستية في الطقوس الشرقية، الطبعة الأولى، شركة الطيف للطباعة المحدودة، بغداد، 2005، الصفحة196.

¹⁶ الأسقف روان وليامس، تفسير الإنجيل الفصحى القيامة، الطبعة الأولى، دراسات لاهوتية، دار المشرق، بيروت، 2012، الصفحة

على موته، إذ أن يسوع أكد أن في موته يتم الحدث المتوقع وقوعه في آخر الأزمنة وفي سبيل الجماعة كلها¹⁷.

- أن سرّ العماد والإفخارستيا في كنيسة المشرق لهما البعد الأسكاتولوجي، وأن مفاعيلهم هي أبدية. وهذا يتضح من نص ليتورجي في طقس الجناز لليوم الأول، في صلاة (رمي التراب)، التي تنص " ...المعمودية المقدسة التي ارتديتها، والأسرار المقدسة (القربان) التي أخذتها هم يُبررونك ويقفون عوضاً عنك في المحاكمة المُهيبة"¹⁸.

- أن من الروائع الطقسية لكنيسة المشرق، والتي لها البعد الأسكاتولوجي الواقعي والمعبر عن سرّ المصالحة والجمع بين الأحياء والأموات هو طقس (الكياسا أو اللص). طقس معبر وحوار غني بالمعاني الروحية. التي تجري أحداثها في اليوم الثاني (الاثنين) بعد عيد القيامة مباشرة. وفحواها هو رجوع الجنس الأدمي المتمثل بأدم (الصلص) إلى الفردوس وذلك من خلال مخلصنا يسوع المسيح. وهو تعبير عن البشارة السارة إلى جميع البشر الأحياء والأموات معاً، القيامة الشمولية. وهي إمتداد لجمعة الموتى التي تسبق الصوم الكبير، لأن هذا الحدث يُعد إكتمالاً لها.

- أن الصليب المقدس الموضوع فوق المذابح، في كنيسة المشرق له دليل واضح في مشتركنا الآنية في ((الأبدية والمجد))، بمعنى أدق هو يسوع المسيح نفسه الذي نتوجه له من خلال كلامنا واعمالنا وافعالنا. وسابوع مار إيليا والصليب هما أساس هذا المفهوم الفريد في الليتورجية المشرقية، التي تركز باكتمال الأزمنة بمجيء يسوع المسيح، لأنه هو الألف والياء.

إن كل ما تطرقنا له هو بصورة إيجازية جداً، لكن بمعاني دقيقة بعيدة عن التعقيد والشرح المُسهب. لكن انطلقنا من الواقعية الطقسية المُعاشة بصورة إيمانية وبعمقٍ فكري. استطاعت الكنيسة الأولى في تثبيته من خلال واقع حياتي معاش، ومرآة تعكس الحقيقة إلى الآخر. وتثبت حقيقتها من خلال الآخر. الحياة في الله تبتدئ منذ الآن، ولا تنتهي في حياتنا الأرضية، هذا ما عاشته الكنيسة الأولى، وما تعيشه الكنيسة الآن، وستعيشه الكنيسة إلى الأبد، لأنها حقاً هي منذ الآن في الأبدية، لذلك هي كنيسة الأموات والأحياء معاً.

¹⁷ الأب ألان مرشُور، الموت والحياة في الكتاب المقدس، الطبعة الثالثة، دراسات في الكتاب المقدس-دار المشرق، بيروت، 1992،

الصفحة 45.

¹⁸ طقس الجناز حسب كنيسة المشرق الآشورية، الطبعة الأولى، مطبعة مطرانية كنيسة المشرق، بغداد، 1985، الصفحة 62.